لا أثر للمغازلة فى روسيا

مترجمة عن مجلة انترناشونال رايرجست

بقلم الأستاذ توفيق ضعون

هذا ما بدا لأحد سكان غربى أوروبا عند ما زار موسكو ، وقد عاد منها مقتنعاً أن « الرفيق كوبيد » أصبح شيئاً غير مرغوب فيه فى وطن ستالين . أما روايته فى هـذا الصدد فهى ما يلى :

لقد ألف سكان غربى أوربا مشاهدة المطارحات الغرامية على أنواعها ، وفى جملتها تبادل القبل فى الشوارع والمتنزهات ، والتشجيع على المغامرة الذى يلقاه الرجال من النوانى . فلا بدع إذن أن يعجب الباريسيون أو سكان أى مدينة من كبريات المدن الأمريكية للمحافظة التامـة على الآداب العمومية التى يلقونها فى موسكو .

ممـا لا ريب فيه أن هذه المدينة التى تعج بضعفى عدد سكان باريس هى واحدة من « أنظف » بلدان العالم ؛ إذ أن العلاقات اليومية بين الرجال والنسـاء خاضعة لقواعد التعفف والصون التى جرى عليها الأقدمون . فلا عواهر يخطرن فى الأسواق ، والرجال والنساء ، شباناً وكهولا ، لايتبادلون القبل علانية ، ولا يسيرون متشابكى الأذرع ولامتضامّين لـكى يثبتوا للملأ مايضمره أحد الفريقين للآخر من حب وإعزاز . وجـل ما يراه الزائر محبان يتنزهان ، وقد أخذ كل منهما بذراع الآخر فى احتشام كلى ، فيخيل إليه أنهما زوجان انقضى على قرانهما عقد من السنين .

ومما استرعى انتباهى بنوع خاص أننى بينما أنا واقف فى مطار كالينينغراد فى انتظار طائرة تقلنى إلى موسكو ، تجلى أمامى مشهد وداع مدهش جرى بين جندى مبتور الذراع وخطيبته الحسناء المسافرة ؛ فعند ما أزف الوعـد أخرجت الفتاة من محفظتها تفاحة قدمتها للجندى فتناولها مبتسما ، وبادلها بدوره إهداءها بضمة من أزهار كان قد اقتطفها من حقل مجاور . والظاهر أن تعرضهما للأنظار ربكهما إلى حـد أنهما افترقا دون عناق . وصعدت الفتاة إلى الطائرة حيث لبثت مستغرقة فى تفكيرها لاهية عن كل ما حولها باستثناء لحظات خاطفة كانت تلقى فيها نظرة أسى من النافذة ، أو تصوبها إلى طاقة الزهر الصغيرة التى زوّدها بها خطيبها الجندى ، وعبثاً حاولت الترفيه عنها ، فقد رفضت بأدب وحزم كل ما عرضته عليها من سكائر وحلوى .

وفى غضون الأسبوعين اللذين قضيتهما فى موسكو تكررت أمامى المشاهد الدالة على المحافظة إلى أقصى حدودها . ولم يتفق لى ألبتة أن رأيت مطارحة من المطارحات الغزلية الشائعة الألوفة فى المدن الأوروبية والأمريكية . فان تلك النظرات الخاطفة التى يتبادلها المارة عادة فى باريس أو نيويورك ، والتى تعبر عن التباهى بالجمال أو الأناقة أو الإعجاب بهما مفقودة تماماً فى موسكو . والذى وثقت منه أن الفتاة أو المرأة فى العاصمة الروسية لا تدرك معنى لأدلة الحب والإعجاب ، أو هى تأخذ نفسها بواجب تجاهلها فإن أنت أطلت النظر إليها عزّت ذلك منك إلى تبينك لطخة علقت بأنفها فتحاول إزالتها بمنديلها .

وإذا رأيت امرأة جالسة على مقعد فى حديقة عامة فلا تخش إذا أنت جاورتها أن تحدجك بغضب ، أو تخلى مكانها ؛ إذ هى لا ترى فى صنيعك مايريب أويدعو إلى الاستهجان . وإذا جرؤت على سؤالها عن الوقت أو استطلعتها رأيها فى الطقس أجابتك بكل بساطة معينة لك الساعة ومعربة عن شعورها بنقص الحر أو اشتداده بالنسبة إلى ما كان عليه فى الأحد الفائت .

ولا يصح أن يُعزَى ما يبديه الذكور فى موسكو من الفتور أو التحفظ إلى نقص فى جاذبية إناثها ، فهن على العكس من ذلك بارعات الحسن ، وجمال بعضهن رائع فتان . فهناك الموسكوفيات الذهبيات الشعور السمهريات القوام ، والشماليات ذوات البشرة العاجية والأعين الزرق ، والقوقازيات الفاتنات اللحاظ المفترات الثغور . ولكن برغم كل هذه المغريات يندر أن يعيرهن الرجال التفاتاً . وحتى اليوم لا أعلم سبباً لهذا الفتور وعدم المبالاة يبديهما الرجال نحو أبرع النساء جمالا سوى اعتبارهم الاحتفال بالجمال إلى حد التدله ، إخلالا بالآداب العامة .

ومما يلفت النظر بنوع خاص هو أنه بين زهاء الألفين من اللوحات المصرية المعروضة فى المتحف الفنى لا يوجد رسم واحد عار . وفى أثناء إقامتى فى المدينة أعرت مديرة المنزل دفتراً أودعته ما أوحاه إلىّ خيالى من رسـوم عارية لآدم وحواء فى

الفردوس . فلم يكد يقع نظرها على الرسم الأول حتى أعادت إليّ دفتري قائلة : « اسمح لي أن أعيد إليك بضاعتك إذ لا سوق في روسيا للرسوم البذيئة ! » ، ولا يتوهمن القارئ أن بين تلك الرسوم ما يريب أو يخدش العفاف ؛ فإنني لو كنت في باريس لما تحرجت أن أطلع عليها راهبة في دير سان سوبليس فلا ترى فيها ما يوجب الإغضاء . والأغرب من ذلك أن الكثيرين من أصدقائي في موسكو أكدوا لي أن تلك المديرة لا تعد من المتطرفات في التصون .

وربما كان أشد ما حيرني سلوك الرجال ؛ فهم متطرفون في كتمان عواطفهم الجنسية . ومما أذكره في هذا الصدد أنني بينما كنت مسافراً في طائرة أخذت أسلي نفسي بمطالعة عدد من مجلة « ليف » حتى إذا ما استوعبت جل ما يهمني من مواده دفعته إلى ضابطين روسيين مجاورين لي ، فراحا يقلبان صفحاته دون أن يستوقفهما ما حفل به من رسوم الفتيات ذوات الجمال الرائع والمهندام البارع ، شأنهما في ما مرا به دون مبالاة من صفحات المواد لجهلهما اللغة الإنكليزية . أما الصفحة الوحيدة التي أطالا فيها التحديق فهي تلك التي تضمنت إعلاناً عن معمل دراجات آلية .

ولا يزال ذلك الاحتشام المحسوس الملموس في روسيا سراً مثلقاً عليّ ، وربما كان من أول الأسباب الداعية إليه هو أن النساء في الاتحاد السوفياتي ، باستثناء أقلية لا يؤبه لها ، أصبحن على قدم المساواة مع الرجال ، ففي كل مكان تقوم المرأة بأعمال كانت وقفاً على الرجال ، كقيادة الحوافل ، وبيع تذاكر السفر في محطات السكك الحديدية ؛ حتى أن تنظيف المجاري تقوم به النساء . وكثيراً ما تبصر إحداهن خارجة من الأعماق وقد علت وجهها وثوبها الأقذار بعد أن غاصت فيها بحذائها الساق الضخم .

ومن الجهة الثانية نرى أن الروسيين قد أعياهم إدراك مفهوم الغربيين للأسلوب الأصلح في العلاقات بين الجنسين . ومن الأمثلة الطريفة على تقصيرهم في هذا المضمار هو ما شاهدته في (قيانا) ، فقد دُعي عدد من الفتيات الفرنسيات المجندات إلى حفلة اجتماعية أقامها ضباط روسيون . ومما لا ريب فيه أن الفرنسيات لم يجاوزن في سلوكهن الحد الذي ألفنه مع أبناء جنسهن . وكان الروسيون الذين تجنبوا كل أنواع المنازلة أن رافقوا بكل أدب مدعواتهن إلى منازلهن ، ولكنهم لم يتمالكوا أن أبدوا منتهى الاستغراب عند ما رأوا الفتيات يودعنهن عند الباب ولم تدع واحدة منهن رفيقها للدخول وتناول فنجان من الشاي أو كأس من الشراب .

وهذا لا يعني أن الغريب المقيم على سفر في موسكو لا يستطيع أن يصادق فتاة روسية ، على أن علاقته بها تختلف كثيراً عما لو كان في باريس أو لندن أو نيويورك . مثال ذلك أن الفتاة الموسكوفية تستاء إذا حاول رفيقها أن يدفع ثمن ما تناوله من طعام أو شراب ؛ فهي تصر على دفع حصتها من النفقة ، ولا تقبل هدية إلا إذا كان في استطاعتها أن تقدم ما يضارعها في أول فرصة تسنح .

وقد اتفق لي أن قدمت يوماً لفتاة عرفتها هدية صغيرة فردت عليها في الحال بطاقة من الأزهار . وفي ظرف آخر قدمت فتاة موسكوفية زجاجة عطر أتيت بها من باريس فما كان منها إلا أن قدمت إلي علبة كبيرة من البرتقال .

وها أنا قد عدت من روسيا مندهشاً لتحرر الروسيات من سلطان الحب . ولا بد لي من الاعتراف بأن العلاقات الجارية بين الجنسين في العاصمة الروسية تدهش إلى أقصى حد الرحالة الذي تتالت أمامه في كل مكان المشاهد الدالة على ما كان للحرب من الأثر في تداعي الأخلاق ، وما عقبها من الفوضى الأدبية في البلدان الأوروبية دون استثناء .

نوفيو ضمره

محمود الخفيف

يقـــــدم

من وراء المنظار

صور انتقادية فكهة من حياتنا الاجتماعية